الموحد ٣

مجلة نباتية فصلية

WWW.ATTAWEEL.COM

أسعد الدين محمد

المجالس الادبية في عصر صلاح الدين الايوبي

د . ناظم رشيد
كلية الآداب ـ جامعة الموصل

لم تكن الدولة الايوبية (٥٦٧ ـ ٦٤٨ هـ) التي قامت على أرض مصر والشام واليمن وأجزاء أخرى من العالم الاسلامي آنذاك تُعنى بالسيف والجهاد المقدّس والكفاح المرير والحرب الضروس والوقوف بوجه المحتلين الغاصبين الذين زحفوا من الغرب وجاسوا خلال الديار بتشجيع من أسيادهم فحسب ، بل كانت تُعنى أيضاً بالقلم والقضايا الفكرية والشؤون العلمية والتأليف والترجمة التي بدأها الأسلاف الغيارى .

كان صلاح الدين يوسف بن أيوب ـ مؤسس الدولة الأيوبية ـ بطلاً غيوراً ، وفارساً جسوراً ، ومفكراً فذاً ، وعالماً متمكناً ، وأديباً نابهاً ، اخذ الحديث عن الحافظ ابن أبي طاهر احمد بن محمد السِّلفي[١] ، والشيخ الامام اسماعيل بن مكي بن عوف الزهري[٢] . وحفظ القرآن الكريم ، وكتاب « التنبيه » في الفقه للشيخ ابراهيم بن علي بن يوسف ، وحماسة أبي تمام ، وعدداً من دواوين الشعراء المشهورين[٣] . وقرأ التاريخ ووقف على دقائقه ، قال قاضيه بهاء الدين بن شداد[٤] : « كان حسن العشرة ، لطيف الأخلاق ، طيب الفكاهة ، حافظاً لانساب العرب ووقائعهم ، عارفاً بسيرهم وأحوالهم ، حافظاً لأنساب خيلهم ، عالماً بعجائب الدنيا ونوادرها ، بحيث كان يستفيدُ محاضرُه منه مالا يسمع من غيره » . وعدّه كاتبهُ العماد الأصبهاني أديباً ناقداً[٥] ، وأورد له اليونيني مقطوعة جيدة من نظمه[٦] .

ان صلاح الدين الأيوبي من الرجال الخالدين ، والعظماء البارزين ، حقه علينا ـ نحن الدارسين ـ كبير في ابراز الجانب المشرق من دولته وضمها الى الجوانب المشرقة الاخرى من تاريخ أمتنا المجيدة ثم وضعها بين أيدي أبنائنا لكي يستنيروا بها ويستفيدوا منها في بناء مجتمعنا السائر نحو التقدم والرقي ، والآخذ في التطور .

ان عصر بني أيوب عصر افاقة فكرية ، ونهضة علمية ، سمّاه المستشرق « جب » العصر الفضي تميزاً عن العصر الذهبي[٧] في عهد بني العباس الأوائل . وقد ازدهرت دور العلم في هذا العصر وكثر الناهلون من المعرفة ، وأقبل الباحثون بدأب ونشاط على التأليف ، وظهرت كتب نفيسة لعدد كبير من الفقهاء والنحاة واللغويين والعروضيين والمحدثين والمفسرين والقراء والأدباء والبلاغيين والمؤرخين والجغرافيين والمناطقة والسياسيين والأطباء والرياضيين والموسيقيين . .

رعى بنو أيوب المفكرين ، وحملة الأقلام المبدعين ، ولاغرابة في أن يقول صلاح الدين مخاطباً بعض جنده[٨] : « لاتظنوا أني

WWW.ATTAWEH.COM

ملكت البلاد بسيوفكم ، بل بقلم القاضي الفاضل » . انها مقولة قائد عسكري محنك ، لها مغزى عظيم ودلالة كبيرة في دعم أصحاب العقول النيرة ورعايتهم ودفعهم مع الجنود الباسلين في رفع كلمة الحق واعلاء شأن المشارقة أمام الغزاة الباغين والدخلاء الطامعين ، القادمين من الغرب .

وكانت المجالس الادبية أحد الانشطة البارزة التي نالت من هذه الرعاية الشيء الكثير ، وقد خصصنا هذا البحث لدراسة أهميتها ودورها الفاعل في الحركة الثقافية آنذاك .

عقد الايوبيون المجالس الأدبية والحلقات العلمية واتخذوها وسيلة لتبادل الآراء والخبرات ، ومحطاً لتنوير الفكر بالمستجدات في مختلف جوانب المعرفة ، ومجالاً رحباً للتسلية والمنادمة والمداعبة والرياضة الذهنية . . وقد جنّبوها ـ في أغلب الأحيان ـ من الهزل والسخف والعبث . قال العماد الأصبهاني في صلاح الدين ومجالسه[1] : « ومجالسه منزّهة من الهُزء والهَزْل ، ومحافله حافلةٌ بأهل الفضل ، وماسمعتُ له قطُّ كلمةً تسقط ، ولالفظة فظة تسخط . . ويؤثر سماع الحديث بالاسانيد ، وتكلم العلماء عنده في العلم الشرعي المفيد ، وكان لمداومة الكلام مع الفقهاء ، ومشاركة القضاة في القضاء ، أعلم منها بالأحكام الشرعية ، والأسباب المرضية ، والادلّة المرعية ، وكان مَنْ جالسَه لايعلم أنه جليس سلطان ، بل يعتقد انه جليسُ أخ من الاخوان » . وكان صلاح الدين يستنكر في مجالسه الخرافات والاوهام ، من ذلك مارواه العماد الأصبهاني اذ قال[2] : « كان المنجمون في جميع البلاد يحكمون بخراب العالم في هذه السنة (٥٨٢ هـ) في شعبان ، عند اجتماع الكواكب الستة في الميزان ، بطوفان الريح في سائر البلدان . . فلما كانت الليلة التي عينها المنجمون . . ونحن جلوس عند السلطان في فضاء واسع ، ونار للشموع المزهرات جامع . . ولم يظهر مما قالوا شيء ، وعمل الشعراء في ذلك شعراً يزرون عليهم في حكمهم » .

نظر بنو أيوب الى العلماء والأدباء نظرة اجلال واكبار وتقدير ، واستضافوهم واستصحبوهم للافادة من مخزون ثقافاتهم ومكنون اهتمامهم ، أو لتأليف الكتب بأسمائهم كما هي الحال مع شيث ابن ابراهيم بن محمد المعروف بابن الحاج القناوي الذي ألف كتاب « تهذيب ذهن الداعي في اصلاح الرعية والراعي » لصلاح الدين الأيوبي[3] . كما ألف له موفق الدين بن المطران كتاباً في الطب سمّاه « المقالة الناصرية في حفظ الأمور الصحية »[4] . وصنّف له أبو الفضل عبدالرحمن بن عبدالله بن نصر كتاب « المنهج المسلوك في سياسة الملوك »[5] . وقدّم له أبو الحسن علي بن الحسن المعروف بشُميم الحلي كتاباً بعنوان « أنيس الجليس في التجنيس[6] » . وكانت الأموال تصرف على هؤلاء العلماء العاملين بسخاء ، وقد تجاوزت ـ كما يقول أبو شامة المقدسي ـ في دولة صلاح الدين « مئتي ألف دينار ، وربما كانت ثلاثمئة ألف دينار[7] » .

واجتهد ابناء أيوب في اجتذاب ارباب الاقلام الى مجالسهم ، وتنافسوا في استقطابهم ، وتواصوا في تقديرهم واكرامهم . فكان في رحاب الملك المنصور محمد بن عمر صاحب حماة « ماينافز المئتين من الفقهاء والنحاة وأهل اللغة والمشتغلين بالعلوم الحكمية والمهندسين والمنجمين والشعراء والكتاب والأماثل »[8] . وأحب الملك الكامل محمد بن العادل أبي بكر صاحب مصر مجالسة العلماء ومصاحبة الأدباء ، وكان « يبيت عنده ـ كما قال ابن خلكان ـ في كل ليلة جمعة جماعة من الفضلاء يشاركهم في مباحثهم ، ويسألهم عن المواضع المشكلة من كلّ فن[9] » . وهو الذي طلب من ابن دحية الأندلسي ان يؤلف له كتاباً يجمع فيه شيئاً من شعر أهل المغرب ، فكان ثمرة هذا الطلب كتاب « المطرب من أشعار أهل المغرب »[10] .

ان متندى هذا الملك مفيد ومُحفِّز للقراءة والمتابعة والحفظ ، وتأكيداً على ذلك ننظر الى ماجاء في ديباجة ديوان ابن الفارض الذي جمعه رشيد الدين بن غالب من شرحي البوريني والنابلسي[11] : « كان الكامل يحب أهل العلم ويحاضرهم في مجلس مختص به ، وكان يميل الى فن الادب ، فتذاكروا يوماً أصعب القوافي ، فقال السلطان : مِنْ أصعبها الياء الساكنة ، فمن منكم يحفظ منها فليذكره ؟ فتذاكروا في ذلك ، فلم يتجاوز أحد منهم عشرة أبيات ، فقال السلطان : أنا احفظ منها خمسين بيتاً قصيدة واحدة ، وذكرها ، فاستحسن الجماعة ذلك منه ، فقال القاضي شرف الدين كاتب سره[12] : أنا أحفظ منها مئة

وخمسين بيتاً قصيدة واحدة ، فقال السلطان : ياشرف الدين جمعتُ في خزائني اكثر دواوين الشعراء في الجاهلية والاسلام ، وانا أُحبُ هذه القافية فلم أجد فيها أكثر من الذي ذكرته لكم ، فانشدني هذه الابيات ، فأنشده قصيدة الشيخ (أبي ابن الفارض) التي مطلعها :

سائقَ الأظعانِ يطوي البيدَ طَيْ
مُنيخاً عَرِّجْ على كُثبانِ طَيْ

فقال السلطان : ياشرف الدين لمن هذه القصيدة ؟ فقال : هذه من نظم الشيخ شرف الدين عمر بن الفارض » . ان هذا الخبر يؤكد لنا ان الأيوبيين كانوا محبين بمجالسة العلماء والأدباء ، ومناقشتهم ومحاورتهم وتبادل الاحاديث معهم في شؤون المعرفة وقضايا العلم ، وميلهم الى رواية الشعر وحفظه وانشاده وتتبع فنونه .

ولم يكن الملك الكامل محمد بن ابي بكر العادل هو الوحيد في جمع دواوين الشعراء في الجاهلية والاسلام كما جاء في الخبر السابق فحسب بل كان أغلب الملوك الأيوبيين يقتنون الدواوين ، ويعنون بها ، ويحفظون ماراق لهم منها ، ويستأنسون بسماع روائع الشعر ولاسيما الذي يدعو الى الكفاح والاستبسال ويحرض على الاستماتة من أجل الدين والوطن والشرف . ويعد ديوان المتنبي في المقدمة حفظاً وشرحاً ونقداً ، وقد استرعت هذه الظاهرة انظار ابن الأثير فقال[١١] : « وكنت سافرت الى مصر سنة ست وتسعين وخمسمائة ، ورأيت الناس مكبين على شعر أبي الطيب دون غيره ، فسألت جماعة من أدبائها عن سبب ذلك . . فلم يذكروا لي في هذا شيئاً ، ثم إني فاوضت عبدالرحيم البيساني ـ أي القاضي الفاضل ـ رحمه الله في هذا ، فقال : ان أبا الطيب ينطقُ عن خواطر الناس . ولقد صدق فيما قال » .

نعم لقد كان أبو الطيب المتنبي ينطق عن خواطر الناس ، ويُعبّر عن مشاعرهم التي اشتركت مع مشاعره . ونسوق هنا مثلاً عن عناية بني أيوب بشعره . كان الملك الكامل محمد بن أبي بكر العادل يستدعي الشيخ أبا محمد عبدالمنعم بن صالح[١٢] النحوي الأديب الى مجلسه ويستمع منه شعر المتنبي وشرحه ، ويحاوره في المسائل الدقيقة التي تستوقف القارىء وتتطلب إعمال الفكر في فهمها ، وفي احدى جلساته استمع الى القصيدة الهمزية التي يقول في مطلعها :

أمِنَ ازديارَك في الدُّجى الرقباءُ
اذ حيثُ أنتِ من الظلامِ ضياءُ

ولما وصل الى قوله :

أنساعُها مغبوطةٌ ، وخِفافُها
منكوحةٌ ، وطريقُها عذراءُ[١٣]

قال الشيخ أبو محمد عبدالمنعم[١٤] : « سألني الملك الكامل أبو المعالي محمد بن أبي بكر بن أيوب ملك الديار المصرية والشام والحرمين عن هذا البيت في قوله : « وطريقها عذراء » ، فقلت له : يريد انها صعبة لم تُسلك ، فقال لي : هذا يدل على أن الممدوح لايُعرف ، ولاله ذكر ولاله نائل ؛ لأنَّ الطريق اليه عذراء لم تطرق ، والممدوح اذا كان له عطاء وذكر ويعرفه القصاد كانت الطريق اليه لاتنقطع . ولقد أحسن في هذا النقد » .

ان قوة شعر المتنبي وجزالته وملاءمته مع الأحاسيس وظروف الناس مما جذب الايوبيين وغالبية القراء الى ديوانه ، يتناقلونه ويرددون أشعاره في مجالسهم أيام الراحة والاستجمام ، وينشدونه حين يقارعون الأعداء في سوح القتال والنضال ، رُوي ان عز الدين بن نور الدولة ابن أخي السلطان صلاح الدين الأيوبي ونائبه في دمشق قال بعد ان انتصر على الأعداء في معركة دارت قرب بانياس سنة ٥٧٥ للهجرة[١٥] : « اني في تلك المعركة ، والحومة الجالية إما عن المملكة واما عن المَهْلكة ، تذكرت بيتي المتنبي :

فإن تكن الدولاتُ قسماً فإنها
لمن يردُ الموتَ الزؤامَ تزولُ[١٦]
ومَنْ هوَّن الدنيا على النفس ساعةً
وللبيض في هام الكماةِ صليلُ[١٧]

فهان الموتُ في عيني ، فما أفرّقُ بينَ حياتي وحَيْني » .

وكان الملك المعظم عيسى بن أبي بكر العادل صاحب دمشق

شغوفاً بمجالسة العلماء والأدباء وجمع الكتب والدواوين الشعرية ، وقد نعت بعالم بني أيوب وفقيههم ، قال ابن تغري بردي[٢٩] : « فان المعظم كان في غاية مايكون من الكمال في عدة علوم وفنون ، وهو رجل بني أيوب وعالمهم بلا مدافعة ، ومحاسنه أشهر من أن تذكر » . وقال ابن واصل[٣٠] : « وكان عالماً فاضلاً متفنناً في الفقه والنحو وغيرهما . . وكان عنده ـ رحمه الله ـ جماعة من الفضلاء لايفارقونه في سفر ولاحضر » . وهو الذي كلّف الفتح بن عُثمان البُنْداري أن يترجم له الشاهنامة ـ أي سفر الملوك ـ التي كتبها الفردوسي باللغة الفارسية ، وتمت الترجمة سنة ٦٢٢ للهجرة بلغة نثرية جميلة ، وصرّح بذلك في المقدمة ، فقال[٣٠] : « عيسى بن الملك العادل أبي بكر بن أيوب . . أمر مملوكه الفتح بن علي بن محمد بن الفتح البنداري الأصبهاني ان يترجمه ، فيحلّ حكاياته المنظومة ، وينزع عن مغاطفها أطمار اللغات العجمية ، ويفيض عليها فضفاض وشائع الالفاظ العربية ، ويكسوها وفق اللسان الذي هو أشرف الألسن المنزّلة به أفضل الكتب » . ان شغف هذا الملك الجليل بالكتب كبير وولعه بقراءتها عظيم ، حتى في ساعات الحرب العصيبة ، ومثال ذلك ماقاله ابن واصل[٣١] : « ولقد وقفت على نسخة من كتاب سيبويه وعليها خط الملك المعظم في عدّة مواضع ، أظنها ستة ، يقول في بعضها : أتممت هذا الكتاب مطالعةً ومراجعةً وأنا منازل مدينة أرْسُوف ، وفي بعضها يقول : أتممته مطالعةً ومراجعةً وأنا بنابلس » . وقد ألّف الملك المعظم عيسى عدّة كتب ، لم تصل الينا ماعدا كتاب واحد بعنوان « السهم المصيب في كبد الخطيب »[٣٢] ، انتصر فيه لأبي حنيفة النعمان بن ثابت حينما وجد عليه مطاعن في الجزء الثالث عشر من كتاب « تاريخ بغداد » للخطيب البغدادي ، واذا كان مجلسه في حياته عامراً بأرباب القلم والسيف ، فان مجلس عزائه سنة ٦٢٤ للهجرة كان مكتظاً بمحبيه الشعراء الذين رثوه بقصائد تطفح بالحزن والأسى وفي مُقدّمتهم ابن عُنين الذي قال في قصيدة طويلة[٣٣] :

ابقيتَ لي يادهرُ بعد فراقهِ
كبداً مُقرّحةً وجفناً أرمدا
وجوىً يؤجّجُ بينَ أثناءِ الحشا
ناراً تزايدُ بالدموع توقّدا
لو كان خلقٌ بالمكارم والتقى
يبقى لكان مدى الزمان مخلّدا
لو كان شَقُّ الجيبِ يُنقِذُ من ردىً
شَقّتْ عليك بنو أبيك الأكبُدا
أو كان يُغني عنكَ دفعٌ بالقنا الـ
سمطيِّ غادَرَتِ الوشيجَ مُقصّدا
ولقد تمنّت أنْ تكون فوارسٌ
من آلِ ايوبَ الكرام لكَ الفدا
ابكيتَ حتى نثْرَةً وطِميرةً
وحزنْتَ حتى ذابلاً ومهندا
كم ليلةٍ قد بتُّ فيها لاترى
الاّ ظهورَ الأعوجيّة مرقدا
تحمي حمى الاسلام منتصراً له
بعزائم تستقربُ المستبعدا

والملك الأشرف موسى الابن الثالث للملك العادل أبي بكر ، وهو صاحب حرّان وديار بكر ، كان مشهوراً بحب العلماء والأدباء ودعوتهم الى مجلسه ، وقد جمع ضياء الدين بن الأثير جمله من نظمه[٣٤] . وألف له ابن العديم كتاب « ضوء الصباح في الحث على السماح[٣٥] » ، وصنف له محمود بن محمد بن صفي الوراق كتاب « المقصد » في النحو[٣٦] .

وكان الملك الناصر داود بن عيسى صاحب الكرك عالماً جليلاً وشاعراً مجيداً[٣٧] ، ضمت مجالسه مجموعة طيبة من العلماء والادباء الفضلاء ، نذكر منهم العلامة عثمان بن عمر بن أبي بكر المعروف بابن الحاجب الذي نظم له كافيته في النحو ، وسمّى هذا النظم بالوافية ، قال في مقدمتها[٣٨] :

والملك الناصر عزٌّ ناصرهُ
ولم يزل متمثلاً أوامرهُ
داود نجلُ الملك المعظّمِ
أودعه الرحمن شكر النّعَمِ
من أصبحَ العلم به قد اشتهر
وكلُّ ذي فضل بقدره قدر

أشار أن أنظمها بأمر
فلم يسع لي دفعه بعذر
فقمت فيها واستعنت الله
وكان نور سعده جلاها
يارب فاغفر للذي نظمها
وللذي أشار أن أنظمها

وهي في ثمانين وتسعمائة بيت ، ثم والى شرحها له ، وكان العلامة الفقيه جمال الدين الحصيري آنذاك في استضافة الملك الناصر داود وألف له كتاباً شاملاً في الفتاوى سمّاه « خير المطلوب في علم المرغوب »[3] . ومن الذين احتفى بهم وهيأ لهم مقاماً محموداً سيف الدين الآمدي ، وكان حصيلة هذه الاقامة كتاب « فرائد القلائد » في العلوم العقلية[4] .

واشتهر الملك الناصر يوسف بن الملك العزيز عثمان صاحب حلب بحفظ الشعر ونظمه ، ضمّ مجلسه جملة من العلماء والادباء ، منهم صدر الدين علي بن أبي الفرج البصري الذي ألف له حماسته البصرية[5] ، وقتل معه بيد المغول سنة ٦٥٩ للهجرة . وكان العالم النحوي المشهور محمد بن عبدالله بن مالك أحد جلسائه ، وألف له كتابه « إكمال الأعلام بتثليث الكلام » ، وهو أرجوزه مربعة عدتها نحو ٢٧٥٥ بيتاً[6] ، أولها :

إتباعُ حمد الملكِ الوهاب
صلاته على الرِّضا الأوّاب
محمد وآله الأنجاب
به ابتهاجُ النطقِ والكتاب

ومنها :

لما علمتُ أنّه ذو أرب
الى اتباعٍ في كلامِ العرب
رأيتُ أنْ أجعلَ بعضَ قربي
له كتاباً فيه ذا احتساب

ووفد على مجلس شاعر بني أيوب الكبير الملك الأمجد مجد الدين[7] صاحب بعلبك عشرات العلماء والأدباء ، منهم رشيد الدين علي بن خليفة وألف له كتاباً في الرياضيات بعنوان « الموجز المفيد في علم الحساب »[8] . واختلف الى مجلس الملك العزيز عثمان صاحب مصر كثير من الشعراء ، منهم راجي بن عطاء المصري وصنف له كتاب « الشعراء العصرية بالديار المصرية »[9] .

ان احتضان أبناء أيوب العلماء والأدباء ، والاحتفاء بهم ، وايواءهم ، وتهيئة الحياة الحرة الكريمة لهم ، جعلت شعلة الثقافة متوهّجة ، وجذوة العطاء الفكري مُتّقدة ، وحسبنا ان نذكر العماد الأصبهاني وخريدته ، والقرطبي وتفسيره ، وابن عساكر وتاريخه ، وياقوت الحموي ومعجم أدبائه ، وضياء الدين بن الاثير ومثله السائر ، وابن خلكان ووفيات أعيانه ، وابن أبي أصيبعة وعيون أنبائه ، وشهاب الدين السهروردي وهياكل نوره ، وابن مالك وألفيته ، وابن الصلاح ومقدمته في علوم الحديث ، وابن البيطار وكتاب الادوية المفردة ، وأسامة بن منقذ وكتاب الاعتبار ، وابن أبي الاصبع وكتاب تحرير التحبير في علم البديع . .

إن ثقافة الملوك وأرباب السلطة ، ووفرة العلماء والأدباء ، ساعدت على قيام المحافل العلمية والمجالس الأدبية ، وكان القائمون عليها هم الذين يتصدّرونها ويُديرونها حسبما تشتهي أنفسهم وتميل اليه أفئدتهم ، من ذلك ماقاله ابن واصل في الملك المعظم عيسى بن أبي بكر العادل وهو العالم الجليل وصاحب « المدرسة النحوية »[10] التي بناها على طرف صحن قبة الصخرة من جهة القبلة[11] : « لما قدم الملك المعظم ـ رحمه الله ـ القدس الشريف سنة ثلاث وعشرين وستمائة ، جلس خارج الصخرة الشريفة ، واستدعى جماعة الفقهاء ، واستدعى والدي ـ رحمه الله ـ وباحثهم في مسائل لغوية وفقهية ، ومما سأل عنه يومئذ انه كيف ورد في القراءات الست[12] ، أعني ماعدا قراءة أبي عمرو بن العلاء : (إن هذان لساحران)[13] ، وهذه القراءة هي المطابقة لخط المصحف الامام ، ومن شأن (إنْ) ان ينتصب مابعدها ، فقال بعضهم (إنْ) هاهنا بمعنى (نعم) كما في قول الشاعر :

ويَقُلْنَ : شيبٌ قَدْ علا
كَ ، وقد كَبِرْتَ ، فقلتُ : إنّهْ[14]

أي : نعم .

فأجابَ هذا القائل بعضُهم : إنَّ هذا القول يُعكِّرُ عليه ورود اللام في الخبر ، فإنه لا يقال : (نعم زيدٌ لقائمٌ) ، فقال السلطان ـ رحمه الله ـ لايُعكِّرُ عليه ، بل جاز أن تأتي هذه اللام رعاية للفظ (إن) فانه يقتضي جواز وقوع اللام في الخبر ، ورعاية اللفظ واعتباره قد جاء كثيراً . يقولون : يازيدُ الظريفُ ، فيراعون اللفظ ويحملون عليه ، وان كان زيد منصوباً في التقدير . فاستحسن الجماعة هذا الجواب من السلطان ، وأطنبوا في الثناء عليه » .

لقد أخذت المسائل النحوية جانباً كبيراً من جوانب المناظرة في مجالس بني أيوب ، سواء أكان ذلك في حلّهم أم في ترحالهم . ذكر ابن واصل أيضاً أن الكامل محمد بن العادل أبي بكر صاحب مصر نزل في إحدى أسفاره مدينة « دمشق واستحضَر بها جماعةً من العلماء ، وكان فيهم الشيخ زين الدين بن معطي[٨٤] النحوي المغربي ـ رحمه الله ـ وكان إماماً في علم العربية لايُجارى فيه . . فسألهم عن قولهم : « زيد ذُهِبَ به » هل يجوز في « زيد » النصبُ ؟ فقالوا : لايجوزُ إلا الرفعُ ، واعتمدوا على قول الزمخشري صاحبِ المفصل « زيدٌ ذُهِبَ به ليس فيه إلّا الرفعُ » فقال زين الدين ـ رحمه الله ـ يجوزُ فيه النصبُ على أن يكون المرتفع بـ « ذُهِبَ » المصدر الذي دلَّ عليه « ذُهب » وهو « الذهاب » ، وعلى هذا فموضع الجار والمجرور الذي هو « به » النصب ، فيجيء من باب : زيدٌ مررتُ به ، اذ يجوز في « زيد » النصب وكذلك هاهنا ، فاستحسن الملك الكامل جوابه[٨٥] » .

ان اهتمام بني أيوب بالنحو وتطبيقاته في مجالسهم دليل على الاعتزاز باللغة العربية الفصيحة والمحافظةِ على مقوماتها وتأكيدُ لبقائها بعيدةً عن اللحن والتواءِ النُطقِ وسوءِ التصرف .

وكانت مجالسُ الادب من أحفل المجالس آنذاك ، وقد دعتْ ظروف الحربِ والصراعِ المرير بينَ الشرق والغرب الى تنشيطها ورفدها بذخيرة حيّة من عصارة افكار الادباء الغيورين على الدين والحمى . ويكفي ان نذكر ان اكثر من ستين شاعراً من شعراء الشام ومصر والعراق والمغرب تضافروا على رسم بطولات صلاح الدين والاشادة بمواقفه العظيمة في حرب جيوش الصليبيين وإجلائهم عن المواقع التي احتلوها والمدن التي استباحوها ، من ذلك مثلاً حصن بيت الأحزان ، فان صلاح الدين حرره سنة ٥٧٥ للهجرة ، وتوافد عليه الشعراء من كل صوب لتهنئته والقاءِ القصائدِ بين يديه ، منهم نشوء الدولة أحمد بن نفادة ، وأبو الحسن علي بن محمد بن الساعاتي وسعادة الضرير الحمصي ، ونجمُ الدين محمد بن الحسن بن نبهان وهو من أهل الحلة ، وكانت قصيدته من أجود القصائد ومطلعها[٨٦] :

هنيئاً صلاح الدين بالفتحِ والنصر
ونيلِ الأماني الغرُّ والفتكة البكرِ

ويُعد فتح القدس سنة ٥٨٣ للهجرة من اعظم المناسبات للشعراء ، اذ تسابقوا الى مجلس صلاح الدين زرافات ووحداناً لينشدوا ماجادت به قرائحهم بهذه الفرحة الكبيرة .

قال ابن العديم[٨٧] : « ولم يجتمعْ ببابِ أحدٍ من الملوكِ بعدَ سيفِ الدولة بن حمدان ما اجتمعَ ببابهِ من الشعراء ـ رحمه الله ـ وزادَ على سيفِ الدولةِ في الحباءِ والفضلِ والعطاء » . ومن أبرز هؤلاء الشعراء : العماد الاصفهاني ، وفتيان الشاغوري ، وابن الساعاتي ، والحليم أبو الفضل عبدالمنعم بن عمر الجلياني ، ونجم الدين يوسف بن المجاور ، وأبو عليّ الحسن بن عليّ الجويني ، ومحمد بن أسعد بن عليّ الجواني ، والرشيد بن بدرِ النابلسي القائل في قصيدة طويلة[٨٨] :

هذا الذي كانتِ الآمالُ تنتظرُ
فليوفِ لله أقوامٌ بما نذروا
بمثلِ ذا الفتح ، لا والله ماحُكيتْ
في سالفِ الدهرِ اخبارٌ ولاسيرُ
الآنَ قرَّتْ جنوبٌ في مضاجعها
ونامَ مَنْ لم يزلْ حلفاً له السُّهرُ
بابهجةَ القدسِ ، اذ أضحى به علم الـ
إسلام من بعدِ طيٍ وهو منتشرُ

وثمة مدن اخرى دفعت الشعراء الى النظم ، لاسيما دمياط التي اجتاحها الصليبيون سنة ٦١٦ للهجرة وقتلوا فيها الكثيرين

« وأخذوا منبر الجامع وكسّروه وأهدوا كلَّ قطعةٍ منه الى ملكٍ من ملوكهم[٩٦] » . وكانت همةُ ملكِ مصر الكامل محمد بن العادل أبي بكر عظيمةً ، اذ جلاهم عنها ، وانقذ ساكنيها من كارثةٍ كادت لاتبقي ولاتذر ، وأقام إثر ذلك مجلساً كبيراً ، حضره المهنئون ، ونهض راجحُ بن اسماعيل الحلي ، وأنشدَ قصيدةً تطفح بالبشر ، وتتهللُ بالنصرِ الباهر ، أولها[٩٧] :

هنيئاً ، فإنّ السُّعْدَ راحَ مُخلّدا
وقد أنجز الرحمنُ بالنصرِ موعدا
حبانا إلهُ الخلقِ فتحاً بدا لنا
مُبيناً وإنعاماً وعزّاً مؤيدا
تهلّلَ وجهُ الدّهر بعد قطوبهِ
وأصبحَ وجهُ الشّركِ بالظلمِ أسودا

وأنشد البهاء زهير قصيدةً اتشحتْ نفسه فيها بالافراح ، وتلفعت بوشاحِ الانشراح[٩٨] مطلعها :

بكَ اهتزّ عِطفُ الدِّين في حُلل النّصر
ورُدّتْ على أعقابها ملّةُ الكفر

ولم تكن مصرُ وحدَها ـ حسبما ذكر الشاعر ـ جذلة بهذا النصر ، بل بغداد ومكة ويثرب أيضاً ، لأنهنّ أصبحنَ في مأمَنٍ من صروفِ الدهر ونوائبه :

ومافرحتْ مصرٌ بذا الفتح وحدَها
لقد فرحتْ بغدادُ اكثرَ من مصرِ
فلو لم يقم لله حقُّ قيامهِ
لما سلمتْ دارُ السلام من الذُّعر
فمنْ مبلغٌ هذا الهناء لمكةٍ
ويثربَ تُنهيهِ الى صاحب القبر
فقلْ لرسولِ الله : إنّ سميّهُ
حمى بيضة الاسلامِ من نُوبِ الدّهرِ

وكانت قصيدة ابن عُنين في هذه المناسبة من خيرة قصائد الحماسة والفخر ومطلعها[٩٩] :

سلوا صهواتِ الخيل يومَ الوغىً عنّا
اذا جُهلتْ آياتُنا والقنا الُّدنا

وتظهر في القصيدة مبادىء الفتوة والفروسية الاصيلة والشهامة العربية العالية في مراعاة الأسرى والمستجيرين فيقول :

لقوا الموتَ من زُرقِ الأسنّةِ أحمراً
فألقوا بأيديهم إلينا فأحسنّا
منحنا بقاياهم حياةً جديدةً
فعاشوا بأعناقٍ مقلّدةٍ مِنّا
ولو ملكوا لم يأتلوا في دمائنا
ولوغاً ولكنّا ملكنا فأسجحنا

إن ظروف الحرب استدعت قيامَ مثل هذه المجالس ، وحفّزت الشعراء الى نظم الشعر ، سواءٌ أكان ذلك في الاستنهاض والاستنجاد أم في التهاني والبشائر . ومن طريف ما يَروي لنا عليُّ بن ظافر الأزدي أنه كان جالساً مع جماعة من العلماء والأدباء وسُراة القوم في محفل كبير أقامه الملكُ العادل أبو بكر بن أيوب في الاسكندرية ، ووردت في أثناء ذلك رسالةٌ من ابنه الملك المعظم عيسىٰ صاحب دمشق ومعها قصيدةٌ حماسيةٌ يدعوه فيها للتوجه الى الشام ومعاضدته في محاربة الصليبيين ، أولها :

أرِ رماحكَ من دماءِ عداكا
وانهبْ بخيلك من أطاعَ سواكا
واركبْ خيولاً كالشّمالِ شُزّباً
واضربْ بسيفك من يشقُّ عصاكا
واجلبْ من الابطال كلَّ سَمَيْدعٍ
يفري بعزمكَ كلَّ مَنْ يشناكا
وسر الغداةَ الى العُداةِ مبادراً
واسقِ المنيّةَ سيفكَ السّفاكا
وانكحْ رماحكَ للشغورِ فإنّها
مشتاقةٌ أن تُبتنىٰ بعلاكا
فالعزُّ في نصبِ الخيام على العدا
تُردي الطغاةَ وتدفعُ المُلّاكا
والنّصرُ في الأعداءِ يومَ كريهةٍ
أحلى من الكأسِ الذي رَوّاكا

ولما قُرئت القصيدةُ كاملةً وأُعجِبَ بها الحاضرون ، قالَ الملكُ العادلُ : « نريدُ من يجيب عنها بأبياتٍ على قافيتها » . فقامَ وزيرُه الصاحبُ صفي الدين أبو محمد عبدُ الله بن علي وقال :

« يامولانا مملوكُكَ عليُّ بن ظافرٍ الأزديُّ هو فارسُ هذا الميدان ، والمعتادُ للتخلصِ في مضايقِ هذا الشأن » . قال عليُّ ابن ظافر بعد ان اشارَ اليه الملكُ العادلُ وطلبَ منه الانزواءَ في مكانٍ هادىء لنظم الجواب : « نعَمتُ ، وقد فقدتُ رجليَّ انخزالاً ، وذهبي اختلالاً ، لهيبةِ المجلسِ في صدري ، وكثرةِ مَنْ حضرَهُ من المترقين لي . . فما هو إلا ان جلستُ حتى ثابَ اليَّ خاطري ، وانثالَ الشعرُ على ضمائري ، فكنتُ أرى فكري كالبازيِّ الصيود ، لايَرى كلمةً الاّ انشبَ فيها مَنْسِرَه[٥٥] ، ولامعنى إلاّ شكَّ فيه ظِفرَهُ ، فقلتُ في أسرع وقت :

وصلتْ من الملكِ المعظم تحفةً
ملأتْ بفاخرِ دُرِّها الأسلاكا

والقصيدة طويلة ، قال : « ثم عدتُ الى مكاني ، وقد بيَّضتها ، وحلَّيتُ بزهرها ساحةَ القرطاس الابيضِ وروَّضتُها . فلما رآني السلطان ـ خلَّد الله ملكهُ ـ قد عدتُ ، قال : أعملتَ شيئاً ؟ ظناً منه أنّ العملَ في تلكَ اللمحةِ متعذِّرٌ ، وبلوغَ الغرضِ فيها غيرُ متصوَّرٍ ، فقلتُ : نعم ، فقال : أنشدْنا . فصمت الناس ، وحدّقتِ الأبصار ، وأصاغت الأسماع ، وظن الناسُ بي الظنونَ ، وترقّبوا مني مايكون . من هو إلاّ أن توالى انشادي حتى صفّقتِ الأيدي اعجاباً ، وتغامزتِ الأعينُ استغراباً . . وحين انتهيتُ الى آخرها فاضَ دمعُه ولم يُمكنه دفعَه ، فمدَّ يدهُ مستدعياً للورقة ، فناولتها الى يدِ الصاحبِ ، فناولها له ثم نهض[٥٦] » .

وهكذا كانت المجالس الأدبية ، تتطلبُ من روادها ذكاءً وفطنةً ولباقة وثقافة واسعة لكيلا يخفقوا في المواقفِ المُحرجةِ والساعاتِ العصيبة . وقد يستدعي المقامُ مشاركةَ اكثرَ من واحدٍ في مسألةٍ تطرحُ للمناقشة والاستئناس ، او شيء حسن يراد نعتهُ او وصفهُ كما حدث في احدى مجالس الملكِ العزيز عثمان بن صلاح الدين حين استحسنَ قصةَ الجارية التي صوِّرت في أحد خدَّيها بالمسك حيَّةً وفي الآخر عقرباً ، وطلب من شعرائه وصفها ، فهبت مجموعةٌ كبيرة منهم الى ارتجالِ المقطوعات والقصائد ، وكأنهم في مباراة يحاولُ كلٌ واحدٍ منهم أن يكون المجلي أمام الملك[٥٧] ، ومن هؤلاء الشعراء : محمد بن عبدوس الواسطي ، وأسعد بن مماتي ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتي ، وشهابُ الدين يعقوب ابن اخت الوزير نجم الدين ، والقاضي أبو العباس احمد بن القطرسي ، وابن النبيه المصري ، وأبو العباس احمدُ ابنُ بنت الفقيه أبي الطاهر بن عوف ، والرضي بن أبي حفصةَ الأحدب ، وعليُّ بن ظافر الأزدي ، والوزيرُ نجمُ الدين بن المجاور القائل :

فديتها من غادةٍ
مخلوقةٍ من ضَرَبِ
سألتُها في قبلةٍ
في خدِّها المُذهبِ
فجاوبتْ مُعجبَةً
بكفِّها المخضَّبِ :
وا بأبي ! وا بأبي !
من عُظْمِ هذا المطلبِ
وليس هذا ممكناً
على ممرِّ الحِقَبِ
روضةَ خدي حُرستْ
بحيَّةٍ وعقربِ

وقد يتطلب المجلسُ النظم في الرثاء مثل مافعل صاحب حماة الملك المنصور محمد بن تقي الدين عمر حين توفيت زوجته مَلكة خاتون ، حيث طلبَ من شعرائه المقربين ان ينظموا مراثيهم على وزن قصيدة أبي العلاء المعري ورويها التي مطلعها[٥٨] :

ياساهرَ البرقِ ايقظْ راقدَ السَّمُرِ
لعلَّ بالجزْعِ أعواناً على السَّهَرِ

نظم الشعراء قصائدهم على هذا الوزن والروي ، منهم حسام الدين خُشرتين بن تُليل ، ومما جاء في قصيدته هذان البيان[٥٩] :

فقل لمن راح يرجو طيف مَنْ ظعنوا
لما غدا الطرفُ موقوفاً على السهر
ناشدتك الله لاتنس الوداد فقد
بانتْ سعادُ وهذا آخرُ الخبرِ

وللملك الأمجد مجد الدين الايوبي قصيدة رائعة مطلعها :[٩٧]

ياراقدَ الطرفِ ، طرفي في يد السُّهرِ
داءٌ بليتُ به من رائدِ النظرِ
نم وادعاً ودع المشتاقَ تقلقُهُ
ما تخطتكَ أنواعٌ من الفكرِ

ولم يكن بنو أيوب يقيمون مجالس الحزن والأسى على ذويهم فقط ، بل يقيمونها أيضاً على الخلفاء والوزراء والقواد ، من ذلك مافعلوه في وفاة الأمير على بن الخليفة الناصر لدين الله سنة ٦١٢ للهجرة ، قال ابن واصل : « ولما سَمِعتِ الملوكَ في الشام بموته جلسوا في العزاء له لابسينَ شعارَ الحزن خدمةً للخليفة ، ورثتْهُ الشعراءُ ، فأكثروا ، فممن رثاه شرفُ الدين راجحُ بن اسماعيل الحليّ عندما عمل الملك الظاهر غازي ـ صاحب حلب ـ عزاءه بقصيدة مطلعها :

أكذا يَبُدُّ الدهرُ اطوادَ الهدى
ويردُّ بالنكباتِ شاردةَ الرُّدى ؟!

ورثاه القاضي كمال الدين بنُ النبيه المصري لما عمل الملك الاشرف بن الملك العادل عزاءه بقصيدة مطلعها :

الناسُ للموتِ كخيلِ الطِرادِ
فالسابقُ السابقُ منها الجوادُ[٩٨]

وللشعر مكانة كبرى وحصة عظمى في مجالس اللهو البريء ، يتطارح به الشعراء تارةً ، ويختبرون به قرائحهم تارةً اخرى ، من ذلك ماروى ابن ظافر الازدي فقال[٩٩] :

أنشدنا مولانا السلطان الملك الكامل ـ خلّد الله ملكه ـ قولَ الشاعر :

ترحَّلَ من حياتي في يديهِ
فيا أسفي ويا شوقي اليهِ !

واستجاز الجماعة ، فقلتُ :

ومن هذا يكون عليه مثلي
وهذي الريحُ اخشاها عليهِ

وقال الامير الاجل صلاح الدين احمد بن عبدالسيد الاربلي :

ألا ياليته ان كان يأتي
حياتي ثم موتي في يديهِ[١٠٠]

وقال أبو العز المظفر الأعمى : دخلت على الملك الكامل فقال لي : أجز هذا النصف :

قد بلغ الشوقُ منتهاهُ .

فقلت : ومادرى العاشقونَ ماهو

فقال : وانما غرهم دخولي

فقلت : فيه فهاموا وتاهوا

فقال : ولي حبيبٌ يرى هواني

فقلت : وما تغيّرت عن هواهُ

فقال : رياضةُ النفس في احتمالي

فقلت : وروضةُ الحسن في حُلاهُ

فقال : اسمرُ لدْنُ القوام ألمى

فقلت : يعشقه كُلُّ من يراهُ

فقال : ريقتهُ كلُّها مدامُ

فقلت : ختامها المسكُ من لماهُ

فقال : ليلتهُ كلُّها رقادٌ

فقلت : وليلتي كلها انتباه[١٠١] .

ان هذه المجالس ـ على مافيها من تسلية ـ تستلزم من روادها اليقظة والانتباه وسرعة البديهة ، لأنها محطٌ للاختبار ومهبطٌ لتمييز الذكي من غيره . قال علي بن ظافر الازدي في أحد هذه المجالس : « حضرنا يوماً عند الصاحب صفي الدين بمعسكر المنصور على بلبيس[١٠٢] عند بروز السلطان لسفرته الثانية حين

حُوصرت دمشقُ الحصارَ الثاني في خيمته بمجلس حفل ، لم يعدم فيه احد من مشايخ الدولة ووجوهها وهم اذ ذاك متوفرون ، لم ينقص لهم عددٌ ، ولا فقدَ منهم أحدٌ ، فأنشدني ابن أبي حفصة قصيدةً عاتبته في بعضِ أبياتها ، وارتقى الأمر الى ان قال اسعد ابن الخطير ـ رحمه الله ـ : ان هاهنا جماعة كلهم يقول الشعر ، فلو اقترح عليهم ان يصنعوا شيئاً في بعض مايقع تعيين الصاحب عليه ، لبان الجريء الجنان من العاجز الجبان ، ومن جملة من معنا في المجلس ممن يقول الشعر ابن سناء الملك والاسعد ابو القاسم عبدالرحمن بن شيث ، فاقترح الصاحب ان نعمل في منجنيق الشمعة ـ وكان الهواء عاصفاً ـ فقلت :

أرى شمعةً ضمُّها المنجنيقُ
فجاءتك بالمنظرِ الاعجبِ
يجولُ عليها احمرارُ الغشاءِ
كما جال برقٌ على كوكبِ

وتبعني ابن شيث فقال :

وشمعةٍ في المنجنيـ
ـقِ وهيَ فيه تُشرِقُ
كأنها من تحتِهِ
شمسٌ علاها شَفَقُ

ولم يفتح عليَّ أحد بكلمةٍ ، وانتقدوا عليه تشبيهها بالشمس ، وقالوا : النجم أليق . ثم قال الصاحب : فيها معنىً آخر ، لو نظم لكان مليحاً ، وهو ان يشبهُ بالروح في الجسد ، لان انارة الجسدِ واضاءته بالروح التي في باطنه ، فارتجلت وقلت :

وشمعةٍ في المنجنيـ
ـقِ تلتظي وتتقدْ
تنيرُ فيه مثلما
يُنيرُ بالروحِ الجسدْ

فاستحسن الجماعةُ ذلك[٧٠] .

وقال ايضاً في وصف مجلس أدبي آخر : « واتفق لي أني اجتمعت مع القاضي أبي الحسن بنِ النبيهِ ، ومعنا جماعة من شعراء مصر ، فأنشدَهم قول مؤيد الدين الطغرائي في الهلال :

قوموا الى لذاتكم يانيامْ
واترعوا الكاسَ بصفو المُدامْ[٧٢]
هذا هلالُ العيد قد جاءنا
بمنجلٍ يحصُدُ شهرَ الصِّيامْ

فقال المذكور : لو شبّهه بمنجلِ ذهبٍ يحصدُ نرجسَ النجومِ لكان أولى ، ثم قال نظماً :

انظر الى حسن هلالٍ بدا
فقلت : يُذهبُ من أنواره جِنْدسا
فقال : كمنجلٍ قد صيغَ من عسجدٍ
قلت : يحصدُ من شهبِ الدُّجى نَرْجسا

ثم زدت على هذا المعنى زيادتين بديعتين ، يدركهما الناقد البصير ، فقلت :

أما ترى الهلالَ يُخفي أنجم الـ
أفقِ بنور وجههِ الوسيم
كمنجلٍ من ذهبٍ يحصد مِن
روضِ الظَّلامِ نرجسَ النُّجومِ[٧٣]

لم تخل هذه المجالس ـ كما لاحظنا ـ من ومضات نقدية والتفاتات ذوقية . وكان صلاح الدين على رأس أبناء أسرته في ابداء الملاحظات ، وتقويم الهفوات ، في الشعر الذي يقرؤه او يسمعه ، ومثال ذلك ماقاله العماد الأصفهاني في حوادث سنة ٥٨٨ للهجرة وكان آنذاك في القدس : « كتب إليَّ نشو الدولة احمد بن نفادة أبياتاً يدعوني الى دمشق في خامس جمادى الأولى ، وقد دخل اوان المشمش المعهود ، وهو موسم دمشق المشهود ، أولها :

دعا الناسَ لذات مشمشُ جِلِّقِ
فقد أسرعوا من كلِّ غربٍ ومشرقِ[٧٤]

وعرضتها على السلطان ، فقال : ماقلت في جوابه ؟ فأنشدته :

هلمـوا نـسـابـقْ نـحـو مـشـمش جِـلّقِ
وشم كما نهوى على الأكلِ نلتقي
تَـضَـفّرُ شـوقـاً لانـتـظار قـدومـنـا
ومَـنْ يتـعـشـقْ ذا الـفـضـائـلِ يشتـقِ
اذا حـضـرتْ أطـبـاقـهُ غـابَ رشـدنـا
لـمـا يـتـلاقـىَ مـن شـوقٍ وشـيـقِ
حـكـى جمـراتٍ بـالـفـضـا قـد تـعـلّقـتْ
فـيـا عـجـبـي مـن جمـرةٍ المـتـعـلقِ !
كـأنّ نـجـومَ الأرضِ فـوقَ غـصـونـهِ
فـيـا حـيـرتي مـن نـجـمـه المـتـالـقِ
وجَـنّـاتُـهـا محـمـرةٌ وجـنـاتُـهـا
فـمـن يـرهـا مـثـلي يحـبُّ ويـعـشـقِ
بـدتْ بـينَ أوراق الـغـصـون كـأنّها
كـراتُ نـضـارٍ في لجـينٍ مُـطرَّقِ

قال : فلما أنشدت السلطان هذا البيت ، قال : تشبيه الورق باللجين غير موافق ، فإنّ الورقَ أخضر ، فقلت :

بـدتْ بـينَ أوراقِ الـغـصـونِ كـأنها
كـراتُ نـضـارٍ بـالـزُّمـردِ مُحـدقِ[٧٥]

واستمر في انشاد بقية أبيات القصيدة بعد استحسان السلطان صلاح الدين التغيير الذي أجراه العماد في عجز البيت المذكور .

ولم تكن المجالسُ مختصةً بالملوك فقط ، بل تجاوزتهم الى اناس آخرين ، لاسيما الأدباء ، وقد أشار ابن خلكان الى ذلك في معرض حديثه عن ابن سناء الملك ، فقال[٧٦] : « واتفق في عصره جماعةٌ من الشعراء المجيدين ، وكان لهم مجالسُ تجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعُها ، ودخل في ذلك الوقت الى مصر شرفُ الدين ابنُ عُنين ، فاحتفلوا به ، وعملوا له دعواتٍ ، وكانوا يجتمعون على أرغد عيشٍ ، وكانوا يقولون : هذا شاعر الشام ، وجرت لهم محافلُ سُطرت عنهم ، ولولا خشية التطويل لذكرت بعضها[٧٧] ، وننقل هنا خبراً واحداً من أخبار المجالس التي أودعها ابن ظافر الأزدي كتابه « بدائع البدائه » ، والخبر يذكر ان مجموعة من الشعراء عقدوا مجلساً أدبياً بجامع عمرو بن العاص في القاهرة في احدى ليالي شهر رمضان ، فاقترح أحد الشعراء أن ينظموا أبياتاً في وصف فانوس السحور ، فانبرى الكثيرون ، وقدحوا زناد أخيلتهم ، وكان ثمرة ذلك مجموعة من المقطوعات الشعرية الظريفة ، ومن الشعراء الذين شاركوا في النظم : يوسف بن علي ، والرشيد أبو عبدالله محمد بن متانوا ، والفقيه أبو محمد القلعي ، وعلي بن ظافر ، وشهاب الدين بن يعقوب ، وابو الحسن بنت النبيه ، وابو القاسم بن نفطويه ، وأبو يحيى الستولي ، وأبو العز مظفر الأعمى ، والشريف أبو الفضل جعفر . . ونورد من شعر هؤلاء المذكورين أبيات الفقيه أبي محمد القلعي :

وكـوكـب مـن ضـرام الـزنـد مـطلعـهُ
تَـسـري الـنـجـومُ ولايـسـري اذا رقـبـا
يـراقـب الـصـبـح خـوفـاً ان يـفـاجئـه
فـان بـدا طـالـعـاً في أفـقـه غَـرَبـا
كـأنـه عـاشـق وافَى عـلى شـرفٍ
يـرعـى الحبيب فـان لاح الـرقـيب خبـا[٧٨]

لقد كانت المجالس الأدبية تقام ، الى جانب المساجد ، في دور الخلفاء والأمراء والوزراء والأدباء انفسهم ، أو في المدارس التي شيدها الملوك الأيوبيون في أرجاء دولتهم وسموها باسمائهم . أما انعقادها فكان منتظماً في أوقات خاصة . وقد تسوق اليه المصادفة ، أو تعمل على انعقادها المناسبة كما حصل للعالم الفقيه الشاعر الملك الناصر داود بن عيسى الأيوبي صاحب الكرك حينما زار بغداد واستضافه الخليفة المستنصر بالله الى جلسة أدبية علمية في المدرسة المستنصرية ، حيث استطاع الملك الناصر بذكائه ووافر علمه أن يواجه العلماء والأدباء ويناقشهم مناقشة جادة ودقيقة مما أعجب الخليفة ومن حضر معه ، قال اليونيني[٧٩] : « وبحث الملك الناصر ، واستدلّ ، واعترض ، وناظر الفقهاء مناظرة حسنة ، وكان جيد المناظرة ، صحيح الذهن ، له في كل فن مشاركة جيدة » .

ان انتعاش الحياة الفكرية ورقيها في عصر بني أيوب كان عاملاً في تشجيع المجالس الأدبية ، ودافعاً كبيراً لاقامتها ، والدعوة لها ، واقبال رجال الفكر عليها بكل رغبة واندفاع . وقد أغنت تلك المجالس المكتبة العربية بذخيرة جيدة من النتاج الفكري ، يستطيع الدارس من خلالها معرفة الحالة الثقافية آنذاك ، والوقوف على حياة الأدباء والعلماء ونشاطهم من جهة ، وعلى لغتهم وأساليبهم في التعبير عن هذه الحياة من جهة أخرى .

الهوامش

(١) النوادر السلطانية ، ص ٩ ، الروضتين : ١/٦٨٩ .

(٢) الروضتين ١/٢٩٩ .

(٣) الروضتين ٢/١٨ ، ٢٥ ، ٦٤ ، ٢١٩ . طبقات الشافعية ٤/٣٢٩ .

(٤) النوادر السلطانية ص ٣٤ .

(٥) الحريدة ، بداية شعراء الشام ، ص ٧٨ .

(٦) ذيل مرآة الزمان ١/٤٦٥ .

(٧) الأدب في العصر الأيوبي ص ١٦٨ .

(٨) مرآة الزمان ٨/٣٠٤

(٩) الفتح القسي في الفتح القدسي ص ٦٥٦ ، الروضتين ٢/٢١٧ ، النجوم الزاهرة ٦/٨ .

(١٠) الروضتين ٢/٧٢ .

(١١) معجم الأدباء ٤/٢٦٤ ، نكت الهميان ص ١٦٩ .

(١٢) عيون الانباء ٣/٢٩٧ .

(١٣) مخطوط بدار الكتب المصرية ، رقم ٢٩٢٧ ، أدب .

(١٤) معجم الادباء ٥/١٣١ .

(١٥) الروضتين ٢/١٣٨ .

(١٦) مفرج الكروب ٤/٦١٤ ، وللملك المنصور كتاب مطبوع بعنوان « مضمار الحقائق وسر الخلائق » ، وله آخر بعنوان « أخبار الملوك ونزهة المالك والمملوك » مخطوط في ليدن رقم ٦٣٩ .

(١٧) وفيات الأعيان ٥/٨١ وينظر مفرج الكروب ٥/١٦٤ .

(١٨) راجع مقدمة المطرب

(١٩) ديباجة الديوان ص ٩ ـ ١٠ .

(٢٠) القاضي شرف الدين المعروف بابن عين الدولة الاسكندري ، كان فاضلاً في الفقه والأدب وعلم الشروط ، وكان يحفظ شعراً كثيراً توفي سنة ٦٣٩ هـ (مفرج الكروب ٥/٢٠٣) .

(٢١) الوشي المرقوم ، ص ١٠ .

(٢٢) عبدالمنعم بن صالح بن احمد الاسكندري ، كان علامة ديار مصر أدباً ونحواً ، له النوادر والغرائب ، ولد سنة ٥٤٧ هـ ، وتوفي سنة ٦٣٣ هـ (بغية الوعاة ، ٢/١٥) .

(٢٣) الأنساع : جمع نسع ، وهو سير كهيئة العنان يشد به الرحل ، والمفط : الملد ، كناية عن عظم بطن الناقة ، وخفافها متكوحة أي مثنية بالحصى ، كناية عن وعورة الطريق ، ومنكوحة أي مدمية من الحصى ، وطريقها عذراء أي لم تسلك قبلها (ديوان المتنبي بشرح العكبري ، ١/١٧) .

(٢٤) ديوان ابي الطيب المتنبي بشرح ابي البقاء العكبري ١/١٧ .

(٢٥) سنا البرق الشامي ١/٣٣٠ ، وينظر الكامل لابن الاثير ١١/٥٩ .

(٢٦) جاء في شرح ديوان المتنبي : « ان تكن الدولات ألفاً تستحق ، وحظوظاً تستوجب ، فان أحق من دانت له دولته فملكت ، وأسعدته فانفرد بها ، من ورد الموت الزؤام وهو العاجل غير متهيب ، وأقدم عليه غير متوقع (ديوان أبي الطيب المتنبي ٣/١١٠) .

(٢٧) جاء في شرح ديوان المتنبي : « الدولة تدول لمن وطّن نفسه على القتل ، ولم يمل الى الدنيا بالمكوص عن الحرب ، وصبر على المكروه ، وهو يسمع صليل الحديد في رؤوس الشجعان ، والأبطال تتجالد ، وكؤوس الموت تتنازع ، وأحكام السيوف من الفرسان نافذة ، وأصواتها في رؤوس الشجعان عالية (ديوان أبي الطيب المتنبي ، ٣/١١٠) .

(٢٨) مفرج الكروب ، ٤/٢١٠ .

(٢٩) النجوم الزاهرة ٦/٢٦٨ .

(٣٠) انظر مقدمة المحقق ومقدمة المترجم .

(٣١) مفرج الكروب ٤/٢١٠ .

(٣٢) تولت مطبعة السعادة بالقاهرة سنة ١٩٣٢ طبعه بعنوان (الرد على أبي بكر الخطيب البغدادي) .

(٣٣) ديوان ابن عنين ص ٥٩ ، وينظر مفرج الكروب ٤/٢٢٠ .

(٣٤) وفيات الأعيان ، ٢/١٦٢ .

(٣٥) معجم الأدباء ٦/٤٠ ، فوات الوفيات ٣/١٢٦ .

(٣٦) بغية الوعاة ، ٢/٢٨٠ .

(٣٧) ديوانه « الفوائد الجلية في الفرائد الناصرية » محقق مع رسالتي للدكتوراه الموسومة بعنوان « داود بن عيسى الأيوبي ـ حياته وأدبه » .

٣٨ ـ الكاملية ، مخطوطة دار الكتب المصرية ، رقم ١٤٠٩ ، تحت

(٣٩) منه نسخة بدار الكتب المصرية رقم ١٦٤ ، فقه حنفي .

(٤٠) مفرج الكروب ٥/٣٩ .

(٤١) تنظر مقدمة الحماسة البصرية .

(٤٢) طبع بتحقيق سعد بن حمدان الغامدي في مكة المكرمة ، مركز البحث العلمي (جامعة أم القرى) ، ١٩٨٤ .

(٤٣) توفي سنة ٦٢٨ هـ ، وطبع ديوانه بتحقيقنا في مطبعة وزارة الاوقاف ـ بغداد ، ١٩٨٣ .

(٤٤) عيون الانباء ، ٣:٢٨٧ .

(٤٥) الفصول الباتعة ، ص ٦٦ .

(٤٦) ينبث سنة ٦٠٤ هـ (الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، ٢ : ٣٤) .

(٤٧) مفرج الكروب ، ٤:٢١٣ .

(٤٨) سيأتي بعد تخريج القراءة ان الذين قرأوا بتشديد (إنّ) مع اثبات الف (هذان) هم اربعة من القراء السبعة وليسوا ستة .

(٤٩) جاء في التيسير ص ١٥١ ، قرأ (ابن كثير وحفص : قالوا إنْ ، بإسكان النون ، والباقون بتشديدها . أبو عمر : هذين ، بالياء ، والباقون بالألف) . وينظر : السبعة في القراءات لابن مجاهد ص ٤١٩ ، والحجة في القراءات السبع لابن خالويه ص ٢١٧ .

(٥٠) البيت لابن قيس الرقيات (الأغاني ، طبعة دار الكتب : ١ : ١٦) ، يرى سيبويه ان الهاء في آخر البيت للسكت ، ويرى أبو عبيدة انها اسم ان ، أي انه كذلك (ينظر المغني ، ١ : ٣٨) .

(٥١) هو يحيى بن عبدالمعطي بن عبدالنور المغربي ، يلقب بزين الدين ، ويعرف بابن معطي ، كان أحد الأئمة في النحو واللغة ، توفي بالقاهرة سنة ٦٢٨ هـ (وفيات الأعيان ٦ : ١٩٧) .

(٥٢) مفرج الكروب ٥ : ١٥٨ ، وانظر الفصول الخمسون لابن معطي ص ١٤ .

(٥٣) الروضتين ٢ : ١١ .

(٥٤) زبدة الحلب في تاريخ حلب ٣:١٢٥ .

(٥٥) الروضتين ٢ : ١١٨ ، شفاء القلوب ص ١٦٧ .

(٥٦) مفرج الكروب ٤ : ١٠٠ .

(٥٧) شفاء القلوب ، ص ٣٠٧ .

(٥٨) ديوان بهاء الدين زهير ، ص ١٢١ .

(٥٩) ديوان ابن عنين ، ص ٢٩ .

(٦٠) المنسر : المغار .
(٦١) بدائع البداله ، ص ٣٢٠ ، وانظر نفح الطيب ٣ : ٢٥١ .
(٦٢) انظر الغصون اليانعة ، ص ١٤ ، ٢٣ ، ١٢٩ ، بدائع البداله ، ص ٢٧٨ ، ومابليها .
(٦٣) سقط الزند ، ص ٥٦ .
(٦٤) مفرج الكروب ، ٤ : ٦٦ .
(٦٥) ديوان الملك الأمجد ، ص ٢٥٣ .
(٦٦) مفرج الكروب ٣ : ٢٢٩ .
(٦٧) بدائع البداله ، ص ١٥٤ .
(٦٨) بدائع البداله ، ص ١٥٤ .
(٦٩) الغيث المسجم ، ٢ : ٣٩٣ ، ديوان الصبابة ، ص ١٣٣ ، حسن المحاضرة ٢ : ٣٢ .
(٧٠) بلبيس : مدينة بينها وبين فسطاط مصر عشرة فراسخ على طريق الشام (معجم البلدان ، ١ : ٤٧٩) .
(٧١) بدائع البداله ، ص ٢٦٨ .
(٧٢) عجز البيت في ديوان الطغرائي ، ص ٣٦٤ (ونبِّهوا العود وصفُّوا المُدام) .
(٧٣) بدائع البداله ، ص ١٨٨ .
(٧٤) جلق : بكسرتين وتشديد اللام ، وهو اسم لكورة الغوطة كلها ، وقيل : هي دمشق نفسها (معجم البلدان ، ٢ : ١٥٤) .
(٧٥) الروضتين ٢ : ٢٠٩ ، وينظر ديوان العماد الاصفهاني ، ص ٣١٦ .
(٧٦) وفيات الأعيان ، ٦ : ٦٢ .
(٧٧) بدائع البداله ٢٧٢ ـ ٢٧٥ .
(٧٩) ذيل مرآة الزمان ١ : ١٣٦ ، وينظر مفرج الكروب ٥ : ١٠٨ .

المصـــادر والمراجـــع

١ ـ الأدب في العصر الايوبي : د . محمد زغلول سلام ، مط دار المعارف ـ القاهرة ، ١٩٧٠ .
٢ ـ بدائع البداله : علي بن ظافر الأزدي . تحـ : محمد أبو الفضل ابراهيم . المط الفنية ـ القاهرة ، ١٩٧٠ .
٣ ـ بغية الوعاة : جلال الدين السيوطي ، تحـ : محمد أبو الفضل ابراهيم . مط مصطفى الحلبي ـ القاهرة ، ١٩٦٤ .
٤ ـ التيسير في القراءات السبع : أبو عمرو الداني . استانبول ، ١٩٣٠ .
٥ ـ الخريدة ، بداية شعراء الشام : عماد الدين الأصبهاني . تحـ : د . شكري فيصل . المط الهاشمية ـ دمشق ، ١٩٦٨ .
٦ ـ ديوان ابن مُنِن : محمد بن نصر المشهور بابن مُنِن . تحـ : خليل مردم . مط دمشق ـ دمشق ١٩٤٦ .
٧ ـ ديوان أبي الطيب المتنبي بشرح أبي البقاء العكبري المسمى بالتبيان . تحـ : مصطفى السقا ، ابراهيم الأبياري ، عبدالحفيظ شلبي ، مط البابي الحلبي ـ القاهرة ، ١٩٥٦ .
٨ ـ ديوان بهاء الدين زهير : زهير بن محمد المعروف ببهاء الدين ، مط دار صادر ـ بيروت ، ١٩٦٤ .
٩ ـ ديوان الصبابة : ابن أبي حجلة . مط دار حمد وشركاه ـ بيروت ، ١٩٧٢ .
١٠ ـ ديوان الطغرائي : أبو اسماعيل الحسين بن علي . تحـ : د . علي جواد الطاهر ، د . يحيى الجبوري . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ، ١٩٧٦ .
١١ ـ ديوان عماد الدين الأصبهاني : أبو عبدالله محمد بن محمد المشهور بالعماد الأصبهاني . تحـ : د . ناظم رشيد ـ مط جامعة الموصل ـ الموصل ، ١٩٨٣ .
١٢ ـ ديوان الملك الأمجد : مجد الدين بهرام شاه الأيوبي . تحـ : د . ناظم رشيد . مط وزارة الاوقاف والشؤون الدينية ـ بغداد ، ١٩٨٣ .
١٣ ـ ذيل مرآة الزمان : اليونيني . مط مجلس المعارف العثمانية ـ الهند ، ١٩٥٥ .
١٤ ـ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية : أبو شامة المقدسي . مط وادي النيل ، القاهرة ، ١٢٨٨ .
١٥ ـ زبدة الحلب من تاريخ حلب : ابن العديم ، المط الكاثوليكية ـ بيروت ، ١٩٦٨ .
١٦ ـ سقط الزند : أبو العلاء المعري . مط دار صادر ـ بيروت ، ١٩٦٣ .
١٧ ـ شفاء القلوب في مناقب بني أيوب : أحمد بن ابراهيم الحنبلي . تحـ : د . ناظم رشيد . دار الحرية للطباعة ـ بغداد ، ١٩٧٩ .
١٨ ـ طبقات الشافعية : تاج الدين السبكي . المط الحسينية ـ القاهرة ، ١٣٢٤ هـ .
١٩ ـ عيون الأنباء في طبقات الأطباء : ابن ابي أصيبعة . مط الاقبال ـ بيروت ، ١٩٥٦ هـ .
٢٠ ـ الغصون اليانعة في شعراء المئة السابعة : أبو سعيد الأندلسي . تحـ : ابراهيم الأبياري . مط دار المعارف ـ القاهرة ، ١٩٦٧ .
٢١ ـ الغيث المسجم في شرح لامية العجم : الصفدي . دار الكتب العلمية ـ بيروت ، ١٩٧٥ .
٢٢ ـ الفتح القسي في الفتح القدسي : العماد الأصبهاني . تحـ : محمد محمود صبح . الدار القومية للطباعة والنشر ـ القاهرة ، ١٩٦٥ .
٢٣ ـ الفصول الخمسون : ابن معطي . تحـ : محمود محمد الطناحي . مط عيسى البابي الحلبي ـ القاهرة ، ١٩٧٦ .
٢٤ ـ فوات الوفيات : ابن شاكر الكتبي . تحـ : د . احسان عباس . مط دار صادر ـ بيروت ، ١٩٧٣ .
٢٥ ـ مرآة الزمان : سبط ابن الجوزي . مط مجلس دائرة المعارف العثمانية ـ الهند ، ١٩٥١ .
٢٦ ـ معجم الأدباء : ياقوت الحموي . تحـ : مرجليوث . مط هندية ـ مصر ، ١٩٢٣ .
٢٧ ـ معجم البلدان : ياقوت الحموي . مط دار صادر ـ بيروت ، ١٩٥٥ .
٢٨ ـ مفرج الكروب في أخبار بني أيوب : ابن واصل . جـ ٤ ـ ٥ . مط دار الكتب ـ القاهرة ، ١٩٧٦ ـ ١٩٧٧ .
٢٩ ـ النجوم الزاهرة : ابن تغري بردي . مط دار الكتب المصرية ، القاهرة ، ١٩٣٦ .
٣٠ ـ نفح الطيب : المقّري . تحـ : د . احسان عباس . مط دار صادر ـ بيروت ، ١٩٦٨ .
٣١ ـ نكت الهميان : الصفدي . المط الجمالية ـ القاهرة ١٩١١ .
٣٢ ـ وفيات الأعيان : ابن خلكان . تحـ : د . احسان عباس . مط دار صادر ـ بيروت ، ١٩٧٢ .